باخلاء المناطق المحتلة صباحاً: «وها ان حلمي الذي آمن، دائماً، في النضال بدون عنف وسلاح يئس، الآن، من ذلك» (ص ١٢٢)؛ ويـأسـه ليس نابعـاً من فراغ، انما من لاجدوى الايمان بالحكايات والخرافات والهذيانات فقط. فيتحول حلمي من شخصية سلبية، خاملة، الى شخصية ايجابية تريد المشاركة، مشاركة فعالة، في تغيير الواقع الذي قتل يزدي وحطم اوري. وهذا التغيير هو الذي يجعل كاتسمـان يرى بـ «حلمي في اعينهم، لسبب ما، كمن باستـطاعتـه ان يذيب الواقع كرغبته. قرر كاتسمان ان الامر الاكثر الحاحاً للقيام به هو اذابة هذا الانطباع الغامض» (ص ٢١٨)، فتحوُّل حلمي ليس بسيطاً، انما هو جذري، وكاتسمان، الحاكم العسكري، يرى ان عليه مهمة اساسية، وهي اذابة الانطباع بأن حلمي يستطيع ان يغير الواقع كما يريد. والشخص الذي يقتل، في النهاية، هو كاتسمان، مع انه كان في استطاعته تجنب ذلك. ويرى الناقد بيري بذلك: «فعلة حلمي الاخيرة تمثل كذب الآخرين. في محاولة يائسة للحفاظ على عالمه الخاص، يجب ان يتصرف حسب القواعد المناقضة لعالمه الخاص»[٣]. وعلى افتراض ان حلمي يتصرف خلافاً للقواعد المناقضة لعالمه الخاص، فانه ينجح في الخروج من اطار الحكايات والخرافات الى مجال الفعل: بمعنى آخر، التحول من شخصية سلبية الى شخصية ايجابية فاعلة. ومع ان النهاية، الى حد ما، كانت نهاية مفتعلة وغير مقنعة، الّا انها تحمل، في طياتها، التنبؤ بالمستقبل البشع الذي ينتظر المحتل في المناطق المحتلة؛ فهذا المستقبل يبرّر التفجـر والنهاية الدرامية الزائدة للرواية ويضعنا ازاء اسئلة مستقبلية تجد صداها في شخصية حلمي واوري. والمستقبل الذي تنبأ به المفكر ليفوفيتش ـ كما أسلفنا في البداية ـ يتحوّل الى واقع حقيقي، يمكن لمسه عبر شخصيات واحداث هذه الراوية.

أجمع معظم النقاد العبريين، الذين تناولوا رواية «ابتسامة الجدي» بالدراسة والتحليل، على ان شخصيـة حلمي هي الشخصية الاكثر اثارة وابداعاً بين شخصيات الرواية[٤]، اضافة الى كونها محـاولة اضافية ايجابية لتصوير العربي على هذا النحو في الادب العبري الحديث. وتجنباً لاثارة نقاشات جانبية، اعترف الناقد مناحيم بيري بأن حلمي «مثير ومتميز بين الشخصيات العربية في الادب العبري. ومع ذلك، يبدو مستحيلاً تجنب الافكار النمطية المقولبة في وصف الآخر. بالنسبة الى غروسمان أيضاً، حلمي العربي قريب الى الطبيعة، لا يتكلم، وتستحوذ عليه الاوهام واحلام اليقظة، كما انه خامل ومجنون»[٥].

باعتراف بيري هذا نلاحظ ان من الصعب تجنّب القولبة؛ حتى ان القولبة تصل الى درجة التعميم الشامل: «ولا يقتلون الفتاة دائماً في الحال على اساس شرف العائلة، كما يقولون، وانما يحاولون قبل ذلك حل الامر بهدوء» (ص ١٢).

ان مبررات حماس النقاد العبريين لشخصية حلمي ليس غريباً؛ فما يفتشون عنه في العربي (عبر القولبة بالطبع) هو الاسطورية والغرائبية. ويتم التصريح بذلك، على نحو علمي ومكشوف، في الرواية ذاتها على لسان اوري، حين يعترف، في احد مونولوجاته، قائلاً: «ماذا فيه حتى يذيبني هكذا. أكيد ستقول شوش: انه يخترع لك افلاماً ملونة من الاذنين، وانت تقف وتبتسم. وانا افكر الآن: اي انسان رائع هو حلمي. لو انهم اخبروني عن وجود شخص كهذا عندهم ما كنت لاصدق ذلك. حقاً، كم نحن لا نعرفهم. وكيف قبرناهم تحت استهتارنا لهم» (ص ١٢٠). لذا، نرى انهم يفتشون عما ينقصهم في العربي. فالعربي ـ في الرواية ـ هو الاكثر غرابة (شبيه بشخصيات ماركيز) والاكثر جذباً، وهذا يجعلنا نتساءل عن مدى واقعية، وحتى امكانية، وجود مثل هذه الشخصية، مع ان قولبتها وتنميطها أمر واضح جداً على طول الرواية.